

عبد الرحمن ابن خلدون

الدرس
12

أهداف الدرس

1. أن أتعرف معالم شخصية العلامة ابن خلدون الفكرية؛
2. أن أثبت تراثه وأثره الفكري الاجتماعي والفلسفي؛
3. أن أتمثل شخصيته الموسوعية في إنضاج فهمي وشحذ تفكيري .

تمهيد

يُعد ابن خلدون نسيج وحده، وفريد دهره؛ إنه ذو لسان فصيح، وذهن متوقد، وتفكير خصب، دقيق الملاحظة، واسع الاطلاع، متمكن من علوم جمّة؛ فهو شخصية ناضجة في الفلسفة الإسلامية الاجتماعية، طافحة بالخصوبة واليناعة والإبداع، فكرا وعلما وأدبا وتربية، ونموذج لشخصية العالم المسلم الموسوعي بشمول إنتاجه، وعصارة اجتهاده.

فمن هو ابن خلدون؟ وما معالم تفكيره؟ وما إسهاماته في تأسيس الدرس الفلسفي الإسلامي؟

نص الانطلاق

يقول العلامة ابن خلدون: «اعلم أن الله سبحانه وتعالى ميز البشر عن سائر الحيوانات بالفكر الذي جعله مبدأ كماله ونهاية فضله على الكائنات وشرفه. وذلك أن الإدراك وهو شعور المدرك في ذاته مما هو خارج عن ذاته هو خاص بالحيوان فقط من بين سائر الكائنات والموجودات. فالحيوانات تشعر بما هو خارج عن ذاتها، بما ركب الله فيها من الحواس الظاهرة: السمع والبصر والشم والذوق واللمس. ويزيد الإنسان من بينها أنه يدرك الخارج عن ذاته بالفكر الذي وراء حسّه، وذلك بقوى جُعِلت له في بطون دماغه، ينتزع بها صور المحسوسات، ويجول بذهنه فيها فيجرد منها صورا أخرى، والفكر هو التصرف في تلك الصور وراء الحس، وجولانُ الذهن فيها بالانتزاع والتركيب، وهو معنى الأفتدة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [الملك: 23]، والأفتدة جمع فؤاد، وهو هنا الفكر، وهو على مراتب:

الأولى: تعقل الأمور المرتبة في الخارج ترتيباً طبيعياً أو وضعياً ليقصد إيقاعها بقدرته. وهذا الفكر أكثره تصورات. وهو العقل التمييزي، الذي يُحصّل منافعه ومعاشه، ويدفع مضارّه.

الثانية: الفكر الذي يفيد الآراء والآداب في معاملة أبناء جنسه وسياستهم، وأكثرها تصديقات تحصل بالتجربة شيئاً فشيئاً إلى أن تتم الفائدة منها، وهذا هو المسمى بالعقل التجريبي.

الثالثة: الفكر الذي يفيد العلم أو الظن بمطلوب وراء الحس لا يتعلق به عمل، فهذا هو العقل النظري، وهو تصورات وتصديقات تنتظم انتظاماً خاصاً على شروط خاصة، فتفيد معلومات آخر من جنسها في التصور أو التصديق، ثم ينتظم مع غيره فيفيد علوماً آخر كذلك. وغاية إفادته تصور الوجود على ما هو عليه بأجناسه وفصوله وأسبابه وعلله، فيكمل الفكر بذلك في حقيقته، ويصير عقلاً محضاً ونفساً مدركة، وهو معنى الحقيقة الإنسانية».

[مقدمة ابن خلدون 1008/3-1009]

الفهم

الشرح:

- الإدراك: حصول الصورة في الذهن.
- التصو: إدراك ماهية الشيء دون الحكم عليه.
- الأصول: المصادر الأساسية لبناء الأحكام.
- استخلاص من النصين أثر العلامة ابن خلدون في الدرس الفلسفي الاجتماعي.

التحليل

نتناول هذا الدرس من خلال المسألتين الآتيتين:

المسألة الأولى: العلامة عبد الرحمن ابن خلدون حياته وسيرته العلمية

هو عبد الرحمن، أبو زيد، ولي الدين، ابن خلدون؛ فاسمه عبد الرحمن، وكنيته أبو زيد، ولقبه ولي الدين، وشهرته ابن خلدون - نسبة إلى أحد أجداده خالد بن عثمان على عادة أهل المغرب في زيادة الواو والنون للتعظيم، مثل حمدون وزيدون... - يقول ابن خلدون عن نسبه: «ونسبنا حضرموت من عرب اليمن، إلى وائل ابن حجر من أقيال العرب، وله صحبة» [التعريف

بابن خلدون، ص5] أما عن نشأته فيقول: «أما نشأتي فإني ولدت بتونس في غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة، وربيت في حجر والدي رحمه الله إلى أن أيفعت... وبعد أن استظهرت القرآن الكريم من حفظي قرأته بالقراءات السبع المشهورة، إفرادا وجمعا في إحدى وعشرين ختمة...» [التعريف بابن خلدون، ص17 بتصرف] و«درس العلوم الشرعية من تفسير وفقه وأصول وتوحيد. ودرس العلوم اللسانية من لغة ونحو وصرف وبلاغة وأدب، ثم درس المنطق والفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضيات، وحظي بإعجاب أساتذته». [مقدمة ابن خلدون - مقدمة المحقق - 42/1 - 43 بتصرف]

إن حياة ابن خلدون لم تكن حياة هدوء ولا استقرار، بل كان حياة صاخبة مضطربة، تفيض بما كان يخوضه من مغامرات، ويواجهه من خصومه وحساده من مكائد ومؤامرات، فقد «اجتاز ابن خلدون في حياته أربع مراحل تمتاز كل مرحلة منها بمظاهر خاصة من نشاطه العلمي والعملية:

- المرحلة الأولى: مرحلة النشأة والتلمذة والتحصيل العلمي، وتمتد من ميلاده سنة 732هـ إلى غاية سنة 751هـ، فتستغرق زهاء عشرين عاما هجريا، وقد قضاها كلها في مسقط رأسه بتونس، وقضى منها خمسة عشر عاما في حفظ القرآن وتجويده بالقراءات والتلمذة على الشيوخ وتحصيل العلوم.

- المرحلة الثانية: مرحلة الوظائف الديوانية والسياسية، وتمتد من أواخر سنة 751هـ إلى أواخر سنة 776هـ، فتستغرق زهاء خمسة وعشرين عاما هجريا، قضاها متنقلا بين بلاد المغرب الأدنى والأوسط والأقصى، وبعض بلدان الأندلس، وقد استأثرت الوظائف بمعظم وقته وجهوده في أثناء هذه المرحلة.

- المرحلة الثالثة: مرحلة التفرغ للتأليف، وتمتد من أواخر سنة 776هـ إلى أواخر سنة 784هـ فتستغرق نحو ثمان سنين، قضى نصفها الأول في قلعة ابن سلامة، ونصفها الأخير في تونس، وقد تفرغ في هذه المرحلة تفرغا كاملا لتأليف كتابه «العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر». ويطلق على القسم الأول من هذا الكتاب اسم مقدمة ابن خلدون، وهو يشغل مجلدا واحدا من بين سبعة مجلدات.

- المرحلة الرابعة: مرحلة وظائف التدريس، وتمتد من أواخر سنة 784هـ إلى أواخر سنة 808هـ، فتستغرق زهاء أربع وعشرين سنة، قضاها كلها في مصر، وقد استأثرت وظائف التدريس والقضاء بأكبر قسط من وقته وجهوده في أثناء هذه المرحلة» [مقدمة ابن خلدون - مقدمة المحقق - 30/1]. يقول المقرئزي: «وفي يوم الاثنين تاسع عشرة (جمادى الثانية سنة 786) استدعي شيخنا أبو زيد

عبد الرحمن ابن خلدون إلى قلعة الجبل ، وعرض عليه السلطان ولاية قضاء المالكية ، وخلع عليه ،
ولُقب ولي الدين». [السلوك لمعرفة دول الملوك 166/5]

المسألة الثانية: أثره الفكري: الاجتماعي والفلسفي

يعتبر العلامة عبد الرحمن بن خلدون مفكرا موسوعيا ، وفيلسوبا اجتماعيا ، ومؤرخا مقتدرا ،
علا كعبه ، وسمت همته؛ فهو مؤسس علم الاجتماع ورائده ، والمجدد في علم التاريخ وفقهه ،
منهجه الفلسفي يقوم على التأمل العقلي ، والبحث النظري التجريدي في غير ما مصدره الوحي
والنقل ، يقول رحمه الله: «إن العقل ميزان صحيح ، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد
والآخرة ، وحقيقة النبوة ، وحقائق الصفات الإلهية ، وكل ما وراء طوره . فإن ذلك طمع في
محال». [المقدمة 1073/3]

إن الناظر في فكر العلامة ابن خلدون من خلال موسوعته التاريخية الاجتماعية- العبر ،
وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر-
يلاحظ أنه لم يدع مجالا فكريا إلا تناوله ، ولا ظاهرة بشرية إلا درسها وحللها ، وبين أغراضها ، ثم
عللها ، وأتى على أسبابها . كل ذلك بنظرة علمية دقيقة ، ورؤية شاملة فاحصة على أساس منهج علمي
رصين ، يسهم في تجديد النظر ، وتوسيع دائرة الفكر ، وترسيخ مسالك الفهم ، ومقاصد البيان ،
إحاطة وشمولا ، رسدا وتتبع وتصنيفا ، في فهم حقيقة الإنسان والكون ، والمجتمع والتاريخ؛ فقد
ذكر العلامة ابن خلدون «أن الله سبحانه وتعالى ميز البشر عن سائر الحيوانات بالفكر الذي جعله
مبدأ كماله ونهاية فضله على الكائنات وشرفه» وأن الفرق بين فكر الإنسان وباقي الحيوانات هو أن
الإنسان «يدرك الخارج عن ذاته بالفكر الذي وراء حسّه» بقوى أودعها الله سبحانه فيه ، وتحدث
عن أنواع الفكر ومراتبه ، مميزا بين العقل التمييزي ، والعقل التجريبي ، والعقل النظري ، مبينا
بذلك مستويات التعقل عند الإنسان واصفا بكونه «عقلا محضا ونفسا مدركة وهو معنى الحقيقة
الإنسانية» فيقول: «والفكر على مراتب:

- الأولى: تعقل الأمور المرتبة في الخارج ترتيبا طبيعيا أو وضعيا ليقصد إيقاعها بقدرته .
وهذا الفكر أكثره تصورات . وهو العقل التمييزي الذي يحصل منافعه ومعاشه ، ويدفع مضاره .

- الثانية: الفكر الذي يفيد الآراء والآداب في معاملة أبناء جنسه وسياستهم . وأكثرها تصديقات
تحصل بالتجربة شيئا فشيئا إلى أن تتم الفائدة منها . وهذا هو المسمى بالعقل التجريبي .

- الثالثة: الفكر الذي يفيد العلم أو الظن بمطلوب وراء الحس لا يتعلق به عمل . فهذا هو العقل النظري ، وهو تصورات وتصديقات تنتظم انتظاما خاصا على شروط خاصة ، فتفيد معلومات آخر من جنسها في التصور أو التصديق ، ثم ينتظم مع غيره فيفيد علوما آخر كذلك . وغاية إفادته تصور الوجود على ما هو عليه بأجناسه وفصوله وأسبابه وعمله ، فيكمل الفكر بذلك في حقيقته ، ويصير عقلا محضا ونفسا مدركة وهو معنى الحقيقة الإنسانية». [مقدمة ابن خلدون 1008/3 - 1009]

وخلاصة القول: أن ابن خلدون كان فتحا جديدا في عالم المعرفة والفكر والتراث ، تشرب علوما مختلفة عقلية ونقلية ، مستوعبا التراث الثقافي القديم ، دارسا مختلف المعارف والفنون في مداخلها ومقاصدها ، فقها وتفسيرا وكلاما أصولا ولغة ، وعلوم المنطق والفلسفة والرياضيات ، والعلوم الطبيعية والجغرافية وغيرها . يقول عبد الواحد وافي في مقدمة تحقيقه للمقدمة: «يتجه أكبر قسط من جهودنا في هذا التمهيد إلى الكشف عن عبقرية ابن خلدون ومظاهر عظمتة فيما خلفه من آثار ، وخاصة في مقدمته التي أنشأ فيها علما جديدا ، وهو ما نسميه الآن «علم الاجتماع» أو «السوسيولوجيا» «la sociologie» ، وأتى فيها بما لم يستطع أحد من قبله أن يأتي بمثله ، بل بما عجز كثير ممن جاء بعده من أئمة علماء الاجتماع أن يصل إلى شأوه ، والتي تدل بحوثها على رسوخ قدمه في طائفة كبيرة من العلوم الأخرى ، وعلى أنه- بجانب ما ابتكره وما رسخ قدمه فيه- لم يغادر أي فرع آخر من فروع المعرفة إلا ألم به» [مقدمة ابن خلدون - مقدمة المحقق - 29/1]

التقويم

1. أعرف بشخصية ابن خلدون ، وأبين مراحل حياته؛
2. أبين مراتب الفكر وأنواعه ووظيفة كل نوع عند العلامة ابن خلدون .

الاستثمار

يقول العلامة عبد الرحمن بن خلدون: «واعلم أن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلًا وتعلِيمًا ، هي على صنفين: صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره ، وصنف نقلي: يأخذه عن وضعه؛ فالصنف الأول: هي العلوم الحكيمة الفلسفية ، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ، ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها

ومسائلها، وأنحاء براهينها، ووجوه تعليمها حتى يَقِفَ نظرُهُ ويحِثُّه على الصواب من الخطأ فيها، من حيث هو إنسان ذو فكر. والثاني: هي العلوم النقلية الوضعية، وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي، ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول...»

[المقدمة 1025/3-1026]

أتأمل هذا النص، وأبين من خلاله أنواع العلوم، ومصادرها، ومجالاتها، وأضع ذلك في خطاطة.

الإعداد القبلي

أستثمر الدروس السابقة وأعد لدرس أنشطة التثبيت والدعم.